كلية : الآداب

القسم او الفرع : / قسم الاجتماع

المرحلة: المرحلة الثانية

أستاذ المادة : م. م. ايمان عبد العزيز كريم

اسم المادة باللغة العربية : المجتمع العراق

اسم المادة باللغة الإنجليزية : Iraqi Society

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة العربية: طبيعة المرحلة الراهنة

اسم المحاضرة الثانية عشر باللغة الإنكليزية : The natural of the current stage

محتوى المحاضرة الثانية عشر

طبيعة المرحلة الراهنة

كان معظم بحثنا في الفصول السابقة يدور حول الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق في العهد العثماني . ونريد الآن ، في هذا الفصل الأخير ، أن ندرس بعض ملامح المرحلة الراهنة التي حلت بالعراق بعد زوال العهد العثماني عنه

الواقع ان المرحلة الراهنة لا يكفي لدراستها فصل واحد ، فهي مرحلة اجتماعية ذات أهمية بالغة ولعلها أهم مرحلة مر بها العراق في مختلف أطوار تاريخه الطويل . وسنحاول دراستها على شيء من التفصيل في كتاب قادم . أما غرضنا في هذا الفصل فهو استعراض بعض الخطوط الرئيسة التي تميزت بها المرحلة الراهنة ، وذلك لكي تتكامل في ذهن القارئ صورة عامة عن المجتمع العراقي من خلال تطوره من الماضي إلى الحاضر .

اثر الحرب العالمية الأولى :

قد يصح القول بأن الحرب العالمية الأولى كانت أعظم حدث اجتماعي في تاريخ العراق ي كانت بمثابة نقطة تحول هائل حيث انفتحت بها أمام أعين العراقيين آفاق جديدة الحديث ، فهي لم يكن لهم بها عهد من قبل .

كان العراق في العهد العثماني يعيش في شبه عزلة اجتماعية . فكان الناس فيه ، إلا القليل منهم ، لا يعرفون عن الحضارة الحديثة وأحداث العالم الخارجي غير النزر اليسير . ثم جاءت اليهم الحضارة إثر الحرب الأولى ، فكان مجيئها بغتة وبزخم شديد مما أحدث في المجتمع العراقي تغيراً عنيفاً واسع النطاق .

يمكن تشبيه المجتمع العراقي من هذه الناحية بالنائم الذي يوقظ فجأة فيشهد أحداثاً عجيبة لا عهد له بها من قبل فتهز كيانه هزا وتبعث فيه الدهشة والارتباك .

أما الذين كانوا في طفولتهم من أبطال المحلة وقادة المعارك فمن الصعب عليهم أن يتخلصوا في كبرهم من تأثير القيم الزقاقية . فهم سيظلون « أشقياء » كما كانوا ، غير أنهم يسترون شقاوتهم بطلاء براق من المصطلحات الحديثة ، وهم قد يستخدمون تلك المصطلحات أسلحة ضد خصومهم كمثل ما كانوا في طفولتهم يستخدمون الهراوات والأحجار .

ان هؤلاء المزدوجين يمثلون إحدى مشاكل المجتمع العراقي الحديث . فهم قد ينالون الشهادات العالية أو يتسنمون مراكز النفوذ والزعامة ، فاذا كتبوا أو خطبوا جاء جاءوا بالمبادئ « الرنانة » يمطرونها على رؤوس الناس ، وهم قد يغضبون حين يرون أحداً يخ ا يخالفهم فيها ، إنما هم في سلوكهم الواقعي لا يختلفون عن غيرهم من الناس ، ولعلهم أكثر منهم انحرافاً عن المبادئ التي ينادون بها .

ان المبادئ الحديثة جاءت إلى العراق « طارئة » ، إذ هي لم تنبعث من طبيعة ثقافته الاجتماعية الأصيلة . فهي قد اتخذت شكل محفوظات وأناشيد وهتافات وشعارات وما أشبه . والفرد يتعلمها في المدارس ، أو يقرأها في الصحف والكتب ، أو يسمعها في الاذاعات : أو تلقى عليه في المظاهرات والحفلات . وهي ـ إذن ـ تبقى فعالة في مجال الكلام والجدل والانتقاد فقط ، ومن الصعب أن تتغلغل بتأثيرها في أعماق النفوس . فالفرد قد يجادلك على أساسها إنما هو لا يستطيع أن يغير سلوكه بها إلا في نطاق محدود جداً .

لا ننكر أنها ستؤثر في سلوك الأفراد بمرور الأيام ، وسيزداد تأثيرها جيلاً بعد جيل ، وبهذا يضعف أثر الازدواج فيهم ، ولكن ذلك أمر لا يحدث دفعة واحدة ، بل هو يجري تدريجياً وببطء شديد . وربما استغرق أجيالاً عديدة ، ونحن إذ تدرس طبيعة المرحلة الراهنة لابد أن نعترف بما يجري فيها من ازدواج في تكوين الشخصية ، حيث إعتاد الناس فيها أن يقولوا ما لا يفعلون .

مشكلة الوساطة :

يعاني المجتمع العراقي في مرحلته الراهنة مشاكل كثيرة لا يسعنا هنا تعدادها أو التحدث عنها بإسهاب ، ولعل من المناسب في هذا الصدد أن نأتي على ذكر إحدى تلك المشاكل وهي مشكلة الوساطة . وهذه المشكلة يصح أن تكون نموذجاً للازدواج الذي ابتلى به الجيل الجديد من جراء التناقض بين الثقافة القديمة والحديثة في تكوين شخصيته .

الفجوة بين الشعب والحكومة :

إن الفجوة بين الشعب والحكومة ظاهرة اجتماعية كانت موجودة في معظم الأمم القديمة ، هي تنشأ من جراء بغض الشعوب لحكامها . فالحكام يفرضون الضرائب على رعاياهم يضربونهم بالسياط ويأمرون بقتلهم لأقل هفوة تبدر منهم ، وهذا لا بد أن يؤدي بالرعايا إلى غضهم قليلاً أو كثيراً .

ولكن هذه الفجوة بين الحكام والرعايا كانت ذات طابع « سلبي » ، وأعني بذلك أنها لا تؤدي إلى تكوين « رأي عام » يراقب الحكام ويردعهم عن الاستبداد والظلم ، فالحكام سادرون في استبدادهم والرعايا سادرون في خنوعهم .

لم يكن الرعايا يعدون حكامهم خداما لهم كما هو الحال في الشعوب الحديثة ، بل كانوا يعدونهم أسياداً . وهم ـ إذن ـ لا يفترضون في حكامهم أن يقوموا لهم بأي عمل نافع ، وإذا قام أحد الحكام أحياناً بمثل هذا العمل اعتبروه تفضلاً منه وعملاً « خيرياً » فأخذوا يلهجون بذكره ، ونظم الشعراء القصائد « العصماء » في مديحه .

ان هذا هو ما كان الناس عليه في العراق في العهد العثماني ، ولكنهم سرعان ما تغيروا بعدئذ وذلك حيثما اشتد فيهم الوعي السياسي ولمى الرأي العام . وبذا تحولت الفجوة بين الشعب والحكومة من طابعها « السلبي » القديم إلى طابع « ايجابي » حديث .

لا يخفى أن الحكومة العراقية مصابة بعيوب وأدواء شتى . فهي قد انبثقت من المجتمع الذي تعيش فيه واستمدت طبيعتها منه ، فاذا كان المجتمع مصاباً بالعيوب والادواء فهي لابد أن تكون مثله مصابة بها[1]. ولكن الرأي العام لا يفهم هذا عادة ، فهو يفترض في الحكومة أن تنجز من الأعمال مثل ما انجزته الحكومات « الراقية » التي يسمع عنها . وهذا يؤدي إلى نفع كبير ، بلا ريب ، إذ هو يجعل الحكومة تتحرك فتحاول القيام بالتعمير والاصلاح بمقدار جهدها ، ولولا ذلك لظلت الحكومة على دأبها سائرة على ديدنها القديم لا تعرف من دنياها غير تعمير المساجد وتخريب البلاد .

نحن لا ننكر أن الحكومة العراقية هي أفضل جداً من الحكومة العثمانية ، فهي قد انجزت في نصف قرن ما عجزت الحكومة العثمانية أن تنجز جزءاً صغيراً منه في أربعة قرون . ولكن مشكلتها آنها تجابه وعياً

[1] سيجد القارئ دراسة مسهبة لعيوب الحكومة العراقية , وشتى الادواء التي تنخر فيها , في كتاب قادم – ان شاء الله

سياسياً شديداً لم يكن موجوداً من قبل . فالرأي العام يريد منها الشيء الكثير ، بينما هي مقيدة بالواقع الاجتماعي التي تعيش فيه وليس في امكانها أن تتحرر منه دفعة واحدة وتقفز إلى الامام على نمط ما يبتغي الرأي العام منها .

كان الناس في العهد العثماني ينسبون كل بلاء يصيبهم إلى الله ويعتقدون أنهم مستحقون له من جراء ذنوبهم ، وهذا جعلهم يعظ بعضهم بعضاً لكي يتركوا اقتراف الذنوب ويستغفروا ربهم . أما الآن فقد نسي الناس ربهم وصاروا ينسبون كل بلاء إلى الحكومة ، وهذا يدعوهم إلى انتقاد الحكومة وإلى الهتاف بسقوطها .

وصل الحال ببعض العراقيين من الناحية إلى درجة أنهم يعدون الحكومة مسؤولة عن كل أذى يصيبهم مهما كان تافها . فاذا ثار في وجوههم غبار مثلاً أخذوا يشتمون الحكومة لأنها لم تزرع الأشجار في البراري ، وإذا ازدحمت السيارات في شارع قالوا : تعساً لهذه الحكومة التي لا تنظم السير تنظيماً مضبوطاً . أما إذا نزل بهم ضرر كبير فان الشتائم تنهال على الحكومة من كل حدب وصوب .

" قد يجوز القول بأن هذه « الفجوة الايجابية » بين الشعب والحكومة هي في ازدياد يوماً بعد يوم . فالحكومة حين تقوم بإنجازاتها النافعة إنما تقصد بها أن يرضى عنها الرأي العام ، ولكنها لا تدري أنها قد تزيد بذلك من نقمته عليها . فهي إذا فتحت مدرسة مثلاً فمعنى ذلك أنها تزيد من عدد الأفراد الطامحين المتذمرين ، وإذا أسست . وازدحموا وهم عندئذ سيأخذون بالتأفف منه وينتقدون الحكومة على تقصيرها فيه . اما إذا وقع انقلاب فانهم يتوقعون منه ان يأتي بالمعجزات في اصلاح الوضع العام ، وهم سوف يشعرون بالتذمر حين لا يحصلون منه على ما كانوا يأملون !

كلما سارت الحكومة في انجازاتها خطوة واحدة إلى الامام سار الرأي العام قبلها خطرات . فهي مسابقة بين من هو بطيء في سيره ومن هو سريع ، فلا البطيء قادر أن يسرع ولا السريع قادر أن يبطئ ، فمتى يلتقيان ؟!